الكتاب الرابع

الخير والشر [1]

لا تَذُمَّ القضاء من كلِّ وجهٍ لست تدري عن المُقدَّر شيًّا
قد يكون البلاءُ موطئ لطفٍ ويكون المُصاب رزقًا خفيًّا

[1] يعرض الكتاب الرابع ثيوديسيه Theodicy، مفصلة؛ أي بحثًا في العدالة الإلهية وإثباتًا للعدل الإلهي ونقضًا للاعتراض القائم على وجود الشر، والمصطلح وضعه ليبنتز ووسم به كتابًا له في هذا الغرض.

الفصل الأول

لماذا يزدهر الأشرار؟

أَنْشَدَت «الفلسفة» هذه الترنيمة الشجية الرقيقة بجلالٍ ورصانة، غير أني لم أكن قد نسيت بعدُ ما يعتلج بصدري من الأسى، فعاجلتها وهي تهُم باستئناف حديثها قائلًا: «أنت أيتها المُبَشِّرة بالنور الحق، كل ما أفضيتِ به حتى الآن يبدو مُلهمًا لمن يتأمله وبالغ الحجة لمن يتمعَّن فيه، لقد ذكَّرتني بما أنسانيه الحزن الذي ران عليَّ لما لقيت من الظلم، وكنت أعرفه قبل ذلك حق المعرفة، إلا أن علة حزني الحقيقية هي هذه: أن أرى الشر قائمًا في عالمٍ يدبِّره إلهٌ خيِّرٌ، بل أجد هذا الشر يمضي في طريقه بغير عقاب، ألا تبدو لك هذه الحقيقة وحدَها مثيرةً حقًّا لكل عجب؟»

غير أن هناك شيئًا لعله أكثرُ عَجَبًا من ذلك؛ وهو أن الشر حين يَسُود ويزدهر فإن الفضيلة تمضي بغير جزاء، بل يدوسها الأشرار بأقدامهم، وينالها العقاب بدلًا من أن ينالهم، فأن يحدثَ هذا في مملكة إلهٍ شامل العلم وشامل القدرة ولا يريد إلا الخير، فليس شيءٌ أدعى من ذلك إلى الشكاة والحيرة.

فأجابت: نعم، كم يكون أمرًا بالغ الغرابة والبشاعة حقًّا لو أنه مثلما حسبت، لكأني به أشبه بدارٍ مرتَّبةٍ لسيدٍ جليلٍ يُعتنى فيها بالصحون الرخيصة بينما تُهمَل النفائس ويعلوها القذَرُ! ولكن الأمر ليس كذلك، فإذا صحَّت الاستنتاجات التي انتهينا إليها، ولو تأمَّلت فيها جيدًا لتعلَّمت من الخالق نفسه، الذي نتحدث الآن عن حكمه وإمرته، أن الأخيار دائمًا أقوياء والأشرار عاجزون، وتعلَّمت منه أيضًا أن الرذيلة لا تُعدَم الجزاء، والفضيلة لا تعدم المثوبة، وأن الطيبين ينعمون دائمًا بالسعادة والأشرار دائمًا أشقياء محرومون، وهناك الكثير من الاعتبارات المماثلة التي سوف تُعضِّد لك هذا الرأي بقوةٍ وصلابة، إذا ما هدأت ثائرتُك وعُدت إلى صوابك.

لقد تبيَّنت صورة السعادة الحقة التي أظهرتُك عليها الآن، وعرفت أين تكمن، فإذا ما ضربتَ صفحًا عما لا ينبغي الوقوف عنده، فسوف أدُلُّك على الطريق الذي يعود بك إلى وطنك، وسوف أمنح روحك جناحين تُحلِّق بهما، فتُزايلك الكروب جميعًا، ويكون بوسعك أن تعود سالمًا إلى وطنك الأصلي، سأكون لك الدليل والطريق والوسيلة.

إنَّ لديَّ أجنحةً رشيقةً
تحلق بها في أعالي السماء،
عندما يتَّخذُها العقل
يزدري الأرض المقيتة من تحته،
ويعلو إلى الفضاء العريض،
ويرى السحاب وراءه وقد تخطَّاه بعيدًا،
ثم يجوز خلال نطاق النار
التي تفور من فوق اهتياج الهواء المحموم
حتى يصعدَ إلى النجوم،
يلحق بالشمس في مسارها،
أو يَتْبَع ساتورنوس (زُحل) القديم البارد
حارس الكوكبة المضيئة،
أو يتخذ مسار أي نجم
من النجوم التي تُرصِّع الليل،
وبعد أن يشبع ترحالًا
يغادر السماءَ ويَرُود النطاق الأخير للأثير،
ويحوز الآن على الضياء الأَجَلِّ،
فها هنا ملك الملوك يحمل صولجانه
ويمسك بأعنَّة كل شيءٍ مسكًا وثيقًا
ويُحرِّك العربة المجنَّحةَ وهو ثابت.
مدبر العالم كله يتألق نورًا،
فإذا ردَّك هذا الطريق إلى هناك،
الطريق الذي نسيته وتريد الآن أن تتذكَّره،

فلسوف تقول: «إنه هو ...
هذا وطني، منه أتيت
وفيه سأبقى ولن أبرح أبدًا.»
فإذا ما عنَّ لك أن تُلقي نظرةً على الأرض المعتمة من ورائك،
فلسوف ترى الطغاة الذين يُرهِبون الناس بجهامتهم
منفيِّين منبوذين لا مأوَى لهم.

الفصل الثاني

الأخيار وحدهم الأقوياء

عندئذٍ قلت: «ما أضخم وعودَك وأعرضها، وأنا لا أشكُّ في قدرتك على إنجازها، ولكني أتوسل إليكِ ألا تتركيني أنتظر طويلًا بعد أن أثرْتِ اشتياقي.»

قالت: «إذن ينبغي أولًا أن تعلم أن الأخيار لا تُعْوزهم القوة، والأشرار مجرَّدون منها، والحق أن كلًّا من هاتين العبارتين تُفسِّرها الأخرى؛ فحيث إن الخير والشر ضدان، فضعف الشر تُثبته قوة الخير، والعكس بالعكس، ولكي أدعم يقينك بما أقول فسوف أمضي في كلا الاتجاهين وأبرهن على القضيتين برهانًا مضاعفًا.

والآن، ثمة شيئان يعتمد عليهما أداء كل فعلٍ بشري؛ الإرادة، والقدرة، فإذا ما غاب أحدهما تعذَّر أداء أي فعل، إذا غابت الإرادة فلن يتَّجه المرء إلى فعل الشيء ومِن ثَمَّ لن يقوم به، وإذا افتقرَ إلى القدرة فسوف يمارس إرادته من غير طائل؛ لذا عندما ترى شخصًا يرغب في شيءٍ ولا يحصل عليه فمن المؤكد أن ما ينقصه هو القدرة على الحصول على ما يريد.»

ب: «هذا أمرٌ واضحٌ لا يناله الشك.»

ف: «وإذا رأيتَ شخصًا عَمِل ما أراده فلن تَشُك في أن لديه القدرة على عمله، أليس كذلك؟»

ب: «بَلَى.»

ف: «إذن قوةُ كل شخصٍ أو قدرته إنما تُقاس بما يمكنه عمله، ويقاس ضعفه بما لا يستطيع عمله.»

ب: «نعم.»

ف: «فهل تذكر ما انتهينا إليه سابقًا من أن الاتجاه الطبيعي لإرادة البشر، كما تتجلى في مختلف مساعيهم، إنما ينصرف حثيثًا نحو السعادة؟»

ب: «أذكر أننا أثبتنا ذلك أيضًا.»

ف: «وهل تذكر أن السعادة هي الخير ذاته، وما دام البشر يرومون السعادة فإنهم بذلك يرومون الخير؟»

ب: «لا أذكره فحسب بل إنه ليرسخ في عقلي رسوخًا.»

ف: «ومن ثم فإن الجميع، أخيارًا وأشرارًا، يسعون إلى الخير على اختلاف مشاربهم؟»

ب: «نعم، هذا يترتب بالضرورة.»

ف: «ولكن، يقينًا، يصبح الأخيار أخيارًا باكتساب الخير؟»

ب: «نعم.»

ف: «فالأخيار، إذن، يحصلون على ما يَصْبون إليه؟»

ب: «يبدو ذلك.»

ف: «ولكن إذا حصل الأشرار على ما يريدون — أي الخير — فلا يمكن أن يكونوا أشرارًا؟»

ب: «لا يمكن.»

ف: «إذن كلتا الجماعتين تريد الخير، وحيث إن إحداهما تحصل عليه والأخرى تُقصِّر، فليس ثمة أدنى شك في أن الأخيار أقوياء والأشرار عاجزون.»

ب: «مَن يشك في ذلك حقًّا فلا حُكم له، لا في طبيعة الواقع ولا في منطق العقل.»

ف: «مرةً أخرى، افترض أن هناك شخصين يقصدان إلى نفس المهمة بالغريزة الفطرية، فسعى أحدهما إلى تأديتها بالوظيفة الطبيعية وأتمها بنجاح، بينما عجز الثاني عن ممارسة الفعل الطبيعي واستخدام طريقةً أخرى مضادةً للطبيعة مُقلدًا الشخص الناجح من دون أن يُتمَّ غرضه الأصلي، فأيهما تراه الأكثر قوة؟»

ب: «يمكنني أن أحدِس بما تعنين، ولكني أتوق إلى سماعه بوضوحٍ أكثر.»

ف: «هل تُنكر أن فعل المشي هو فعلٌ طبيعي وبشري؟»

ب: «لا أنكر.»

ف: «ولعلك لا تشُكُّ أنه الوظيفة الطبيعية للأقدام؟»

ب: «نعم.»

ف: «فإذا كان بوسع رجلٍ أن يسعى على قدميه ويمشي، بينما يفتقد رجلٌ آخر الوظيفة الطبيعية للقدمين ويحاول أن يمشي على يديه، فأيهما يعد حقًّا أكثر قدرةً وقوة؟»

ب: «سليني غير هذا! ومن ذا يشك في أن الرجل الذي يتمتع بوظائفه الطبيعية أكثر قدرةً من فاقدها؟!»

ف: «حسن، إن الخير الأسمى هو هدف البشر، أخيارهم وأشرارهم على السواء، فأما الأخيار فيسعَون إليه بالنشاط الطبيعي وهو ممارسة فضائلهم، وأما الأشرار فيعمدون إلى تحصيل الشيء نفسه من خلال شهواتٍ شتى ليست بالوظيفة الطبيعية لاكتساب الخير، هل لديك على ذلك تحفظ؟»

ب: «كلا، بل إن مترتباته لواضحةٌ جلية: أن الأخيار أقوياء والأشرار ضعفاء عاجزون.»

ف: «إن توقعك لفي محله، وهو ما ينبئ بأن طبيعتك الآن، مثلما يتمنى الأطباء دائمًا، ناشطةٌ وقادرةٌ على مقاومة المرض، وما دمت أراك سريع الفهم فسوف أدفع حججي دِراكًا، انظر مبلغ ضعف الأشرار، الذين يعجزون حتى عن بلوغ ما يقودهم إليه نزوعُهم الفطري بل يدفعهم إليه دفعًا، فماذا يكون حالُهم لو زايَلَهم هذا العَون الكبير القاهر للنزوع الطبيعي، وكَفَّت الطبيعة عن أن ترشدهم إلى الطريق؟

انظر مدى العجز الذي يُعيق الأشرار، إن ما يعجزون عن كسبه ليس بالشيء الهين، ليس ميداليات ألعاب، إن ما يفشلون فيه هو أسمى الأشياء جميعًا وأهم الأشياء جميعًا ... تاج التيجان، لقد فاتهم النجاح في المسعى نفسه الذي يَكدُّون له ليلًا ونهارًا ولا ينشدون سواه، وهو ذات المسعى الذي يُفلِح فيه الأخيار وتتجلَّى قوتهم.

فإذا تمكن رجلٌ من المضي على قدميه إلى نقطةٍ قُصوَى ليس بعدها بعدٌ فسوف تعتبره بطلًا في المشي، وبالمقياس نفسه سوف تَعُد من يبلغ الهدف النهائي الذي ما بعده هدفٌ بأنه بالغ القدرة، والنقيض أيضًا صحيح، فأولئك الأشرار هم كذلك ضعفاء لا حول لهم ولا قوة، وإلا فلماذا يحيدون عن الفضيلة إلى الرذيلة؟ فإذا قلت لأنهم لا يعرفون ما

هو خيرٌ لَسَألتُك أيُّ عجزٍ أشد من عَمَى الجهل؟ وإذا قلت إنهم يعرفون ما ينبغي طلَبه ولكن الشهوات أضَلَّتهم السبيل لكانوا في هذا أيضًا ضعفاء من حيث التحكم في النفس، أما إذا قلت إنهم تنكَّبوا الخير ومالوا إلى الشر عن علمٍ وإرادةٍ فإنهم في هذه الحالة لا يعدمون القوة فحسب، بل يعدمون الوجود نفسه! فالذي يتخلى من الناس عن السعي إلى الغاية العامة لكل الموجودات فإنه لا يعود هو نفسه موجودًا!

قد يستغرب البعض قولي إن الأشرار، وهم أغلبية الناس، غير موجودين، ولكني سأُبيِّن لك كيف يكون ذلك.

ذلك أنني لا أُنكر أنهم أشرار ولكن أنكر أن لهم وجودًا تامًّا مكتملًا، فأنت قد تسمِّي الجثة إنسانًا ميتًا ولكنك لا يمكن أن تسميها إنسانًا ببساطة، كذلك الأمر بالنسبة للأشرار، فإذا كنت أوافق على أنهم أشرار فلا يمكنني أن أوافق على أنهم يتمتعون بوجودٍ تام، فالشيء إنما يُعَد موجودًا إذا كان يَلزم مكانه الصحيح ويحافظ على طبيعته، فإذا تخلَّى عن ذلك لم يَعُد موجودًا؛ لأن وجوده رَهنٌ بمحافظته على طبيعته، قد تحتجُّ بقولك إن الأشرار يملكون مع ذلك الغلبة والبأس، ولكني أرُدُّ بأن هذا البأس وتلك الغلبة صادران عن الضعف لا عن القوة؛ لأنهم ما كانوا ليفعلوا الشر لولا أنهم فَقَدوا القدرة على فعل الخير، وهذا وحدَه يُثبت بوضوح أنهم عاجزون عن فعل أيِّ شيء، فلما كان الشرُّ عدمًا كما بينا منذ قليلٍ، وكان لا يَسَعهم إلا اقترافه، فواضحٌ إذن أن الأشرار لا يقدرون على أي شيء.»

ب: «واضح.»

ف: «ولكني أريدك أن تعي بدقةٍ طبيعة القوة التي نتحدث عنها، لقد خَلَصنا منذ قليل إلى أنه لا شيء يعلو على الخير الأسمى ويفوقه قوةً وبأسًا.»

ب: «هو ذاك.»

ف: «ولكن الخير الأسمى لا يمكنه فعلُ الشر.»

ب: «لا يمكن.»

ف: «ولا أحد يقول بأن البشر ذوو قدرةٍ مطلقة، أليس كذلك؟»

ب: «بلى، ما لم يكن مأفونًا.»

ف: «ولكن البشر يمكنهم فعل الشر.»

ب: «وكم أود ألا يمكنهم.»

ف: «فإذا ما كانت القوة التي لا يمكنها أن تفعل إلا الخير هي قوة مطلقة، بينما البشر، القادرون على فعل الشر، ليسوا كذلك، وكانت جميع أشكال القوة هي ضمن الأهداف المنشودة، وهذه الأهداف المنشودة ترتبط بالخير بوصفه المثل الأعلى لطبيعتها، والقدرة على ارتكاب الجرم ليست شكلًا من أشكال الخير وليست مِن ثَمَّ هدفًا منشودًا، ولما كانت جميع أشكال القوة أهدافًا منشودةً جديرةً بالسعي والطلب، يتبين من ذلك بوضوح أن القدرة على فعل الشر ليست شكلًا من أشكال القوة.»

من ذلك كله يتضح أن الأخيار هم الأقوياء، ويتضح أيضًا بما لا يدع مجالًا للشك أن الأشرار ضعفاء عاجزون، ويتضح أن أفلاطون كان على حق حين قال في محاورة «جورجياس» Gorgias إن الحكماء فقط هم القادرون على تحقيق رغبتهم، بينما ينصرف الأشرار إلى ما يمنحُهم اللذة ولا يستطيعون الوصول إلى هدفهم الحقيقي، إن أفعالهم تقوم على اعتقادهم بأنهم سوف يبلغون الخير الذي ينشدونه من خلال ملذاتهم، ولكنهم لا يبلغونه لأن الرذائل لا يمكن أن تبلِّغ السعادة.

قد تَرَى الملوك العُتاة متربعين على عروشٍ عالية،
في أرديتهم الأرجوانية البرَّاقة، مُسيجين بأسلحةٍ كالحة
وجوههم جهمةٌ متوعِّدة، قلوبهم تخفق بالغضب،
لو أنك تنزع عنهم، لحظةً، غطاء الأبهة الفارغة،
سيروعك ما تراه من تحتها:
سترى أنهم مُصفدون بأغلالٍ خفية
سترى قلوبًا تعتصرها الشهوة بسموم الجشع،
سترى الأحقاد الفائرة تَثْرى أمواجًا تجلد أرواحهم
يأسرهم الحزن المقيم، ويعذبهم الأمل الخادع،
فإذا كان بداخل رأسٍ واحدٍ يتربَّع طغاةٌ بهذا العدد،
فمخلوعةٌ هي إرادةُ الملك،
ومستعبدُ الناس هو المستعبَد.

الفصل الثالث

الخير مثابٌ والشر معاقب

أرأيت إذن أي وحلٍ تتمرغ فيه الرذيلة، وأي بهاء تتألق فيه الفضيلة؟ من هذا يتبيَّن أن العمل الصالح لا يعدم الجزاء أبدًا، والرذائل لا تعدم العقاب، والطريقة الصحيحة في النظر إلى هذا الأمر هي أن تعتبر الهدف المنوط بأي فعلٍ هو هو ثوابُه، تمامًا كما أن جائزة سباق العدو في الإستاد هي إكليل الغار الذي يُجرى من أجله السباق، ولقد تبينا أن السعادة هي الخير ذاته الذي إليه يهدف كلُّ عملٍ يُؤدَّى؛ ولذا فإن الخير الخالص هو ثواب كل نشاطٍ بشري، وحيث إن الخيرية لا يمكن أن تُسلب من الأخيار، فإن الأفعال الخيرة لا تعدم جزاءها الحق، ومهما يمكر الأشرار ويكيدوا كيدًا فإن إكليل غار الحكيم لن يسقط منه أبدًا ولن يذوي.

وما كان لمكر الأشرار أن ينتزع من الأخيار مجدَهم الخاص، فلو كان المجد الذي نُزهى به مجدًا مستعارًا لاستطاع الآخرون، وبخاصة من أسبغه علينا، سحبه منا مرةً ثانية، ولكن ما دام المجد يسبغه على المرء خيرُه وصلاحه فإنه لن يعدم جزاءه إلا إذا كف عن أن يكون صالحًا.

وأخيرًا، إذا كانت كل مكافأة إنما تُنْشَد لأنها تُعتبر خيرًا، فمن يقول إن الذي وُهب الخير والصلاح هو بلا مكافأة؟ تأمل مرةً أخرى في «اللازمة» corollary التي نَوَّهت بها عندما كنت أتحدث إليك منذ قليل، إذا كان الخير هو السعادة، فمن الواضح إذن أن جميع الأخيار ينالون السعادة بفضل كونهم أخيارًا، وبما أننا اتفقنا على أن أولئك الذين ينالون السعادةَ هم إلهيون، فثواب الخير إذن هو ثوابٌ يستحيل أن يُبْليه الزمن، ولا أن تسلبَه أي سلطةٍ في الأرض، ولا أن يعكره لؤم اللؤماء، وإذا كان الأمر كذلك، فلن يصح لأي عاقلٍ أن يشك أدنى شك في العقاب المحتوم للأشرار، فالثواب والعقاب، شأن الخير والشر، ضدان، فالجزاء الذي نراه واجبًا للأخيار لا بد من أن يوازنه عقابٌ مقابلٌ

للأشرار، فعقاب الأشرار إذن هو شَرُّهم نفسه — الشر عقاب ذاته مثلما أن الخير ثوابُ ذاته.

والآن، لا يشك مَن يلقى عقابًا أنه يلقى شرًّا ما، فإذا شاء الأشرار حقًّا أن يقيِّموا أنفسهم فما أحسبهم يرونها بمنجاةٍ من العقاب وهم يلقون أسوأ الشرور جميعًا — شرًّا لا يمسهم فحسب بل يتغلغل في عمق أعماقهم.

ثم انظر إلى العقاب الذي يُلازم الأشرار من وجهة النظر المضادة، أي من وجهة نظر الأخيار، لقد عرفت منذ قليل أن كل ما هو موجود هو في حالة وحدة، وأن الخير نفسه وحدة، وترتب على ذلك أن كل ما هو موجود ينبغي أن نعتبره خيرًا، يعني ذلك أن أيَّ شيءٍ يحيد عن الخير لا يعود موجودًا، وأن الأشرار بذلك لا يعودون ما كانوه من قبل، إن شكل أجسادهم البشرية ما يزال يدلُّنا على أنهم كانوا بشرًا؛ ولذا فلا بد أنهم فَقَدوا طبيعتَهم البشرية عندما مالوا إلى الشر، ولما كان الخير وحده هو ما يمكن أن يعلو بالإنسان فوق بشريته، فإن الشر بالضرورة قمينٌ بأن يتردَّى به إلى ما دون مستوى البشرية.

وعليه فلا يمكنك أن تعتبره إنسانًا ذلك الذي مَسَخَته رذائله، بوسعك مثلًا أن تشبِّه الذي يسلب ويغتصب ويتحرَّق طمعًا بالذئب، أما النَّزق العنيف الذي يكمن للناس وينقض عليهم غيلةً فيُشبَّه بالثعلب، أما الذي يُرغي ويُزبد ولا يكبَح غضبه فسوف يقال إن به شِرَّة الأسد، وأما المُجفِل الهَيَّاب الذي يرتاع وليس ما يدعو للفزع فسوف يعتبر كالأيِّل، والكسول البليد الغبي أليس يعيش عيشة الأتان؟ والنزوي المتقلِّب الذي لا يستقر على حال ألا يُشبه العصفور؟ والمنغمسُ في الملذات المتمرغ في وَحْلِ الشهوات ألا يُشبه الخنزير؟ ما يحدث إذن هو أن الإنسان حين يفقد خيريته ولا يعود إنسانًا — أي لا يعود قادرًا على السمو إلى الحالة الإلهية — فإنه يتدنى إلى مرتبة الحيوان.

أشرعة ملك إيثاكا،[1]
وسفنُه البحرية التائهة،

[1] هو أوديسيوس (عولس) ملك إيثاكا وبطل الملحمة الهوميرية الموسومة باسمه، والتي تروي ما حدث له بعد انتهاء حرب طروادة في طريق عودته بحرًا من طروادة إلى مملكته إيثاكا وما لقي من متاعب وقاسَى من أهوال، وفيها أن سفن أوديسيوس قادتها الريح إلى الجزيرة التي تعيش فيها كيركى التي ضيَّفت رجال أوديسيوس في قصرها وقادتهم إلى بهو كبير صُفَّت فيه عروش فخمة من ذهب، ما كادوا

ساقتْها ريح الشرق إلى الجزيرة
التي تعيش فيها إلهةٌ جميلةٌ،
هي كيركى، ابنة الشمس نفسها
مَزَجَت كيركى لضيوفها الجُدُد،
بيدها الدَّربة في خلط الأعشاب
أكوابًا مسَّتها بِرُقَى سحرية،
فمَسَخَتهم إلى أشكالٍ شتى،
فواحدٌ يحمل وجه خنزيرٍ بري،
وواحدٌ اتَّخذ شكل أسدٍ أفريقي
ذي أنيابٍ ومخالب،
وواحدٌ صار ذئبًا
يعوي كلما أراد أن يبكي،
وواحد كالنمر الهندي
جعل يَلُوب في الدار
بدبيبٍ خافت،
أحدقت الأخطار بالسيد أوديسيوس،
ولكن الإله الأركادي المجنَّح (هيرميس)
أشفق عليه فأنقذَه من لعنة كيركى،

يستقرون عليها حتى أقبل الساقي بخمر وعسل ثم جيء بجبن وطعام آخر، مخلوط بعقاقير سحرية تُذهِب وعي آكليها وتُنسيهم ما مضى من أمورهم، بل تسلبهم ذكريات أوطانهم، ثم ضربت كلًّا بعصاها السحرية بعد أن أكلوا وشربوا، وقادتهم إلى حظائرها حيث مُسخوا خنازير، وإن أبقَى السحر على عقولهم، أما طعامهم بعد هذا فكانوا يتناولونه من يدها مباشرة، وهو قشر وجوز بلوط، ومن إلى ذلك من أكل الخنازير الخسيسة السائبة (الأوديسية، الكتاب الثامن)، غير أن الإله الأركادي المجنح هيرميس رثى له، وقال: «إني سأحبط ما فعلت، وسأحميكَ وأحفظك. فهذه البقلة العجيبة التي أعطيك ستُبطل كلَّ ما تَحيكُ لك فلا تقدر على مسخك كمن مَسَخَت من رفاقك.» وانحنَى رسول الآلهة (هيرميس) «فالتقط عُشبة من الأرض ثم وضعها في يدي وأخذ يكشف لي أسرارها ويقص عليَّ قواها الخارقة، وذكر لي أن اسمها مولي وبه يدعونها في السماء، وإن الآلهة وحدهم يعرفون كيف يَشفون بها رُقَى السحر» (الأوديسية، الكتاب الثامن).

أما بَحَّارته فقد تجرَّعوا أكواب كيركى،
فانصرفوا عن خبز البَشَر
وتحوَّلوا إلى القشر وجوز البلوط
طعام الخنازير،
لم يَعُد شيءٌ كالذي كان
تغيَّر الصوتُ والشكل،
وحدَه العقلُ بَقِي سليمًا
يأسَى على مأزقهم البشع،
ولكنَّ كيد كيركى كان ضعيفًا،
وأعشابها عاجزة
حوَّلت أعضاء الجسد
ولم تستطع تغيير القلب،
حيث تكمنُ قوة الإنسان
قابعةً في حصنٍ حصين.

* * *

ولكن السم الأنقع حقًّا،
هو ذلك الذي ينفُذُ إلى العقل والروح،
فيسلب الإنسانَ من نفسه
إنه يترك الجسم على حاله،
بينما يصيب العقلَ بجُرحٍ بليغ.

الفصل الرابع

المفلت من العقاب في شقاء

عندئذٍ قلت: «أنا متفقٌ معك وأراك على حق في قولك إن الأشرار لا يحتفظون من إنسانيتهم إلا بالمظهر الجسدي الخارجي بينما مُسِخَت أرواحهم إلى بهائم، غير أني كنتُ أود لو أنهم لا يُمنحون القدرة على تدمير الأخيار من الناس بضراوتهم وخبثهم.»

ف: «إنهم لم يُمنحوا هذه القدرة، كما سوف أُثبت لك في الوقت الملائم، ولكن بافتراض أنهم سُلبوا هذه القدرة التي تعتقد أنهم مُنحوها، فإن عقابهم في هذه الحال سيكون أخف بكثير، قد يبدو للبعض غير معقول ولكنه الحقيقة: إن الأشرار ليكونون أكثر شقاءً لو بلغوا مآربهم مما يكونون لو قصَّروا عن بلوغها! فإذا كان من البؤس أن ترغب في الشر فإنه لأشد بؤسًا أن تَقْدر على فعله، وحيثما رأيت أناسًا لديهم الرغبة في ارتكاب جرمٍ ما، ولديهم القدرة على ذلك، ثم رأيتهم وقد ارتكبوه فلا بد من أنهم يعانون إذَّاك بؤسًا مضاعفًا ثلاث مرات.»

ب: «نعم أوافقك، غير أني أتمنى من كلِّ قلبي لو أنهم يُعفون من أحدها، إذ يُحرمون من القدرة على اقتراف الشر.»

ف: «إنهم سيُعفَون أسرع مما تتمنى ومما يظنون، فليس في مدة الحياة القصيرة شيءٌ يتأخر طويلًا في حسبان العقل الخالد وإدراكه، وكثيرًا ما ينقطع رجاؤهم ويخيب كيدُهم العظيم بنهايةٍ مفاجئةٍ غير متوقَّعة، نهاية تضع حدًّا لبؤسهم على أقل تقدير، ذلك أن خبثَهم هو سبب شقائهم، فيدوم شقاؤهم ما دام بؤسُهم، وما أذَلَّهم وأشقاهم في العالمين لو لم يتدخَّل الموت في النهاية ليضع حدًّا لِشَرِّهم، فإذا صحَّ استنتاجي حول بؤس الأشرار وشقائهم، فإن الشقاء الذي يُترك لحاله سيكون شقاءً لا نهاية له.»

ب: «إنه استنتاجٌ غريبٌ وصعبٌ قبوله، وإن كنت أراه متسقًا تمامًا مع ما سلَّمنا به من قبل.»

ف: «لك حق، ولكن ذا وجد المرء بأسًا في قبول نتيجةٍ معينةٍ فإن عليه أن يبين بوضوحٍ؛ إما أن هناك خطأً في الافتراضات السابقة، وإما أن تَسَلسل القضايا لا يُفضي بالضرورة إلى النتيجة المطروحة، وإلا فما دام يُسلِّم بالمقدمات فليس من حقه على الإطلاق أن يُماحك ويتمارى في النتيجة، إن ما سأقوله الآن أيضًا لن يبدو أقل غرابةً، ولكنه بالمثل يترتب بالضرورة على ما سلَّمنا به وقبلناه.»

ب: «وما هو؟»

ف: «إن الأشرار يكونون أسعد حالًا لو نالوا العقابَ مما لو أفلتوا من جزائهم العدل، ولست أعني الآن ما قد يجول ببالك من قبيل أن الشر يقوِّمه العقاب ويَرُدُّه إلى الجادة خوف العقاب ... إلخ، لا، إنما أرى أن هناك معنى آخر يكون به الأشرار أكثر شقاءً إذا ما أفلتوا من العقاب، بعيدًا عن مسألة التأثير المقوِّم للعقاب، وقيمته كعبرةٍ ورادعٍ للآخرين.»

ب: «أي معنى آخر غير هذا؟»

ف: «حسنٌ، لقد اتفقنا أن الأخيار سعداء والأشرار تعساء، أليس كذلك؟»

ب: «بلى.»

ف: «إذن، إذا ما أضيف شيءٌ من الخير إلى بؤس أي شرير، ألا يكون أسعد حالًا ممن بؤسه خالصٌ صرفٌ غير ممزوج؟»

ب: «يبدو ذلك.»

ف: «فماذا لو أن هذا الشقي نفسه الذي لم يَحْظَ بأيِّ قسط من الخير قد تلقى شرًّا جديدًا مضافًا إلى تلك الشرور التي سببت شقاءه، ألا يُعَد إذَّاك أكثر بؤسًا بكثيرٍ من ذلك الذي خُفِّف من بؤسه بقسطٍ من الخير؟»

ب: «بالطبع.»

ف: «والآن، من الواضح أن عقاب الأشرار عدلٌ، وإفلاتهم من العقاب غير عدل؟»

ب: «لا أحد ينكر ذلك.»

ف: «ولا أحد أيضًا ينكر أن العدل خير، وأن الظلم، في المقابل، شر؟»

ب: «نعم، هذا أمرٌ واضح.»

ف: «إذن عندما يتلقى الأشرار عقابًا إنما يتلقون خيرًا ما — وهو العقاب، الذي هو خير؛ لأنه عدل. أما إذا مضوا دون عقاب فإنهم إنما يكسبون بإفلاتهم شرًّا مضافًا، ولقد وافقت على أنه شر، لأنه غير عدل.»

ب: «لا يَسَعني إنكار ذلك.»

ف: «إذن فالأشرار أكثر تَعْسًا بكثيرٍ حين يُتاح لهم الإفلات، منهم حين يُفرَض عليهم الجزاء العدل.»

ب: «إنه تَرَتُّبٌ منطقيٌّ على النتيجة السابقة، ولكني أسأل: ألا تتركين أي عقابٍ للروح إلى ما بعد فناء الجسد؟»

ف: «هنالك حقًّا عقابٌ عظيم، منه ما يُوقع عليهم بقسوةٍ عقابيةٍ، ومنه، فيما أعتقد، ما يُوقَّع برحمةٍ تطهيرية، ولكني لا أريد أن أخوض في ذلك الآن.[1]

لقد اقتفيت الحجة حتى الآن بالقدر الذي يسمح لك أن ترى أن قوة الأشرار، التي بدت لك غير مستحقَّة، هي في الحقيقة لا شيء، وأن ترى أن أولئك الأشرار الذين تأسى لإفلاتهم لا يَعدَمون العقاب أبدًا على إثمهم، وأن تعرف أن طغيانهم الذي كنت تدعو بأن يُعجَّل بكفِّه لا يدوم طويلًا، وأنهم يكونون أتعس حالًا ما دام طغيانهم، وأخيرًا أن الأشرار يكونون أكثر بؤسًا إذا بُرِّأت ساحتهم منهم إذا لقوا جزاءهم العدل، ويترتب على هذه الحقيقة أنهم يُبهظون بعقابٍ أثقل، بالضبط عندما يُظن أنهم نجوا من العقاب!»

ب: «عندما أنظر في حججك أراها أوجَهَ ما يمكن أن يُقال، ولكني حين أتحول إلى آراء عامة الناس أسائل نفسي: مَن ذا الذي يمكنه أن يفكر في ذلك، ناهيك بأن يصدِّقه؟»

ف: «حقًّا! إن أعينَهم اعتادت الظلام، فلا يستطيعون رفعها إلى ضياء الحقيقة الواضحة، فما أشبههم بالطيور التي يحتد بصرها بالليل ويعمى بالنهار، وما داموا لا ينظرون إلى المسار الحق للأشياء بل إلى مشاعرهم ذاتها، فإنهم يظنون أن حرية الفجور والإفلات من العقاب هي أشياء سعيدة، ولكن انظر إلى ما يمليه القانون الأبدي: إذا كنت قد صُغت روحك على ما هو أسمى فلا حاجة بك إلى حكمٍ ليَهَبَك جائزةً، فأنت نفسك

[1] لاحظ أنها لم تَعد إلى هذا الموضوع قط على أهميته.

من دَفَعت حالك إلى الامتياز وأضفت نفسك إلى عداد الممتازين، ولكن إذا كنت قد تدنَّيت بها إلى الوضاعات فلا تبحث عن عقابٍ من الخارج، إنك أنت من أَسْفَفْت وتبذَّلت ونزلت بها إلى أسفل سافلين، لكأنك في ذلك تنظر على التوالي إلى السماء وإلى قذر الأرض، وتَضرِب صفحًا عن كل ما حولك، فبمجرد النظر ستبدو مرةً سائخًا في الطين ومرةً محلِّقًا بين النجوم، ولكن عامة الناس لا يلتفتون إلى هذه الأشياء.

ماذا نفعل إذن، هل نمشي في رِكاب هؤلاء الناس الذين تَبَيَّن لنا أنهم كالأنعام؟ أرأيت إلى رجلٍ فقدَ بصره تمامًا ونسي حتى إنه كان يومًا مبصرًا، وظن هنالك أن لديه كلَّ الكمال البشري، أترانا نحن المبصرين نظن ظَنَّه؟

ثمة شيءٌ آخر لن يقبلوه وإن لم يَقِل رسوخًا منطقيًّا عن هذا: إن أولئك الذين يرتكبون الظلم لأشد شقاءً ممن يَقع عليهم الظلم.»

ب: «أَوَدُّ سماعَ هذه الحجج الراسخة.»

ف: «حسنٌ، لعلك لا تنكر أن كلَّ شريرٍ يستحق العقاب؟»

ب: «لا أنكر.»

ف: «ومن الواضح، لأسبابٍ كثيرة، أن الأشرار تعساء؟»

ب: «نعم.»

ف: «أنت إذن لا تشك في أن أولئك الذين يستحقون العقاب هم أناسٌ تعساء؟»

ب: «نعم.»

ف: «افترض إذن أنك تجلس على كرسي القضاء، فَعَلَى مَن سوف توقع العقوبة: على الشخص الذي ارتكب الجُرم أم على الشخص الذي وقع عليه الجُرْم؟»

ب: «لا أتردد في القول بأني سوف أُرضِي من وَقَعَ عليه الجرم على حساب ذلك الذي ارتكبه.»

ف: «سترى إذن أن مرتكب الجريمة أكثر شقاءً من ضحيته؟»

ب: «هذا منطقي.»

ف: «لهذا السبب، ولأسبابٍ أخرى تقوم على نفس الأساس، فإنه لما كان الشر بطبيعته يجعل صاحبه أشدَّ بؤسًا، فإن الشقاء لا يَحِيق بضحية الجريمة بقدر ما يحيق بمرتكبها.

غير أن خُطباء المحاكم يمضون في الاتجاه المعاكس، فيحاولون استدرار عطف المحكمة على أولئك الذين أصابهم ضررٌ ثقيلٌ أو مؤلمٌ، مع أنه أَوْلى بالعطف أولئك

المذنبون، كم بالحري أن يقدَّموا إلى العدالة لا بواسطة مجلس ادعاء غاضب متوعِّد بل بادعاءٍ رءوفٍ متعاطف، مثلما يقدَّم المرضى إلى الأطباء، بحيث يمكن أن يعالج مرضهم — الجريمة — بالعقاب، تحت هذه الظروف فإن مهنة الدفاع عن المجرم إما أن تتوقف بالكامل وإما، إذا شاءوا أن ينفعوا الناس، أن يتحولوا إلى مهنة الادعاء، والأشرار أنفسهم إذا أتيح لهم بطريقة ما بصيصٌ من الفضيلة التي تخلوا عنها، وأمكنهم أن يروا أنهم بصدد التخلص من أدران الإثم من خلال آلام العقاب، فلن يعودوا يعتبرونها آلامًا تلك التي ستعوِّضهم عن بؤسهم باكتساب الخير، وسوف يرفضون خدمات الدفاع ويُسلِمون أنفسهم بلا تحفظ إلى مُتَّهميهم وقُضاتهم.

هكذا لا يكون بين الحكماء أي مكانٍ للكراهية: فالأخيار لا يمكن أن يكرههم غير المأفونين، أما الأشرار فليس ثمة ما يدعو لكُرههم على الإطلاق، فكما أن الضعف مرض الأجسام، كذلك الشر مرض الأرواح، وإذا كنا نعتبر مرضى الأجسام أحق بالعطف لا الكراهية، فإن من أصيب في روحه لأحق بالشفقة لا اللوم.»

إلام تُثِيرون انفعالاتكم،
وتريدون أن تزاحموا القدَرَ في عمله،
وتنزلوا الموت بأيديكم؟
إن كنتم تريدون الموت فإنه قريبٌ بطبعه
يحُثُّ أفراسَه المجنَّحة،
الإنسان ضحيةٌ بأنياب السبع والثعبان،
والنمر والدب والخنزير البري،
فهل الإنسان ضحية الإنسان أيضًا؟
لماذا يصنعُ الحرب ويريد أن يَهلك بسيف أخيه؟
لأن تعاليمَه مختلفة؟ فقط لهذا السبب؟!
أهذا سببٌ عادلٌ للعنف وإراقة الدماء؟!

* * *

هل تريد أن تُوزِّع الاستحقاقات كما يجب؟
إذن أحبَّ الأخيار فهذا حقُّهم،
أما الأشرار فأشفق عليهم وأرث لهم.

الفصل الخامس

المثوبات والعقوبات تبدو كالمصادفة

عندئذٍ قلت: «نعم، بوسعي أن أرى أن ثمة ضربًا من السعادة والشقاء غير منفصلٍ عن الأفعال ذاتها لكل من الأخيار والأشرار، ولكني أعتقد أن هناك خيرًا وشرًّا فيما يجري على عامة الناس من أقدارٍ ومصائر، فليس ثمة حكيمٌ يُفضِّل أن يكون منفيًّا فقيرًا مهانًا على أن يكون غنيًّا موقَّرًا قويًّا آمنًا في وطنه مزدهرًا في مدينته، فهذه هي الحال التي تعمل فيها الحكمة عملها على نحوٍ أكثر وضوحًا وشيوعًا، عندما تنتقل سعادة الحكام، بطريقةٍ أو بأخرى، إلى رعاياهم، وبخاصة إذا كان السجن والموت وبقية العقوبات القانونية مقصورةً على المواطنين الأشرار ومقَيَّضةً لهم، لماذا ينقلب هذا كلُّه رأسًا على عقب؟ لماذا تنزل بالخيِّرين العقوبات التي جعلت للمجرمين؟ لماذا ينتزع الأشرار المكافآت المرصودة للفضيلة؟ كل أولئك يثير كل العجب، وإنني لأَوَدُّ أن أعرف منك سبب هذا الخلط الشديد والفوضى الظالمة.»

قالت: «لا عَجَبَ إذا ظَنَّ من لا يعرف نظامَ الطبيعة وأسبابها أن الأمر كله خبط عشواء، ولكن حتى إذا كنت تجهل الحكمة من وراء التدبير العظيم للعالم فليس لك أن تَشُكَّ في أن كل شيء يجري على نحوٍ قويم؛ لأن مدبرًا خيِّرًا يحكم العالم.»

من لا يعرف شيئًا عن السِّماك الرامح؛
النجم الذي يتخذ مسارَه أقرب إلى القطب الأعلى من السماء،
كيف لا يعجب إذ يرى راعي الشاء
يقود الدب الأكبر ببطء شديد،

ويغمس وهجَه في المحيط متأخرًا جدًّا
غير أنه يعود للبزوغ مرةً أخرى بسرعةٍ كبيرة؟
كيف لا يُحيِّره قانون السماء؟

* * *

انظر، كلما خسف القمر وهو بدر
إذ يبسُطُ الليلُ ظلَّه على قرصه،
فينكشف الغطاءُ عن مجموعات النجوم المنتشرة
التي كانت كاسفةً من بهاء نوره،
انظر كيف كانت الأممُ بأسرها تُهْرَع بالخطأ الشائع
إلى قرع الصنج النحاسية دون توقف،[1]

* * *

لا أحد يناله دَهَشٌ حين تثور الرياح،
وتضرب الشاطئ بالموج الهادر
أو حين تذوبُ كتلُ الجليد الصلب
تحت لهيب شمس الصيف،
فهنا الأسباب في متناول اليد والفهم،
وهناك الأسباب خَفِيَّةٌ تُوقع الحيرةَ في القلوب،
فالزمن يُهَوِّل من شأن الأشياء النادرة الحدوث،
والجموع تروعها الأشياء المباغتة غير المعتادة،
ولكن دَعْ غيوم الجهل تنقشع عنها،
وسرعان ما يزول معها العَجَب والاندهاش.

[1] كان الاعتقاد السائد لدى الجهلاء هو أن الخسوف ينتج عن رُقَى الساحرات، ولكي يحولوا دون سماع الرقى ويدفعوا أذى الشرور التي يُنذر بها الخسوف، فقد كان من عاداتهم أن يُحدثوا ضجيجًا بنفخ الأبواق وقرع الأجراس أو الصنج النحاسية ... إلخ.

الفصل السادس

العناية والقدر

قلت: «هو ذاك، ولكن لأن مهمتَك هي كشف أسباب الأمور الخفية وإماطة اللثام عن الأسباب المحجوبة في الظلام، ولأن عقلي في حيرةٍ شديدةٍ من أمر هذه الظاهرة العجيبة، فإنني أتوسل إليك أن تُنبئيني بتأويلها.»

فتوقَّفَت وابتسمت لحظةً وقالت: «إنك تدفعني إلى أعظم المسائل طرًّا، مسألةٍ لا تمكن الإحاطة بها من جميع أوجهها، فهي من الصنف الذي كلما قَطَعت منه شكًّا نَبَتَت مكانه شكوكٌ عديدةٌ، فكأنها رءوس الهيدرا[1] ولا يمكن للمرء أن يوقفها إلا بأذكى اللهب العقلي وأنشطه، فها هنا تقبع مسائل وحدة العناية، ومسار القدر، والمصادفات المباغتة، والمعرفة الإلهية، والقضاء الإلهي، وحرية الإرادة، وبوسعك أن ترى بنفسك هول هذه المسائل.

ولكن لأن معرفة بعض هذه المسائل هو أيضًا جزءٌ من علاجك، فسوف أحاول أن أُلِمَّ بها رغم ضيق الوقت، وإذا كانت تَرُوقك مباهج النغم فإن عليك أن تُرجِئ بهجتك بعض الوقت ريثما أنسج خيوط الحجج نسيجًا محكمًا.»

قلت: «كما ترين.»

عندئذٍ بَدَت كأنها تنطلق من بدايةٍ جديدةٍ وتحدثت كما يلي: «إن نشوء الأشياء جميعًا، وسيرورة كلِّ الطبيعيات المتغيرة، وكل مسارٍ أو حركةٍ في العالم، إنما تستمد أسبابها ونظمها وأشكالها من عقل الله الثابت، وعقل الله، في علياء وحدته، يدبِّر سلاسل

[1] الهيدرا، في الميثولوجيا اليونانية وحشٌ له تسعة رءوس كلما قُطِع منها رأس نبت مكانه رأسان، وقد قتله هرقل واستعان على ذلك باللهب بابن أخيه يولاؤس.

الأحداث، حين يُنظَر إلى هذا التدبير كما هو في خُلوص الفهم الإلهي يُسَمَّى «العناية» Providence، أما حين يُنظر إليه بالإحالة إلى جميع الأشياء التي يضبط حركتها ونظامها فقد جَرَى العُرف منذ القِدَم على أن يُسمَّى «القدر» Fate، ومن ينظر في معنى هذين الاسمين سيتبين له بوضوحٍ أنهما وجهان مختلفان: فالعناية هي العقل الإلهي نفسه الذي يدَبِّر الأشياء جميعًا، وتَقَرُّ مع المتصرِّف الأعلى في الكل، أما القَدَر فهو النظامُ المُخطَّط القائم في الأشياء المتغيرة والذي من خلاله تَسلُك العناية كل شيءٍ في موضع المقيَّض له، تشمل العناية كل الأشياء في الوقت نفسه على تنوعها أو تكثرها، بينما يضبط القدَرُ حركة مختلف الأشياء المفردة في مختلف المواضع وفي مختلف الأوقات، حين «ينطوي» هذا النَّشر الزماني في وحدةٍ كليةٍ في تقدير العقل الإلهي فهو العناية، وحين «يُنشر» هذا الكل الموحَّد نفسه في مجرى الزمان فهو القدر.»

إنهما مختلفان، غير أن كليهما يعتمد على الآخر، فنظام القدر مستمدٌ من بساطة العناية، ألست ترى إلى الصانع الحرفي كيف يَستبِق في ذهنه خطة الشيء الذي يقوم بصنعه، ثم يُجري تنفيذ العمل ويتم في الزمان ما كان في لحظةٍ واحدةٍ حاضرًا كلُّه في ذهنه وماثلًا لعين عقله؟ فكذلك الله يشيد في عنايته خطةً ثابتةً واحدةً لكل ما سيحدث، بينما من خلال القدر يتحقق كل ما خَطَّطه على اختلاف تفصيلاته الجزئية في مجرى الزمان، ومن ثم، فسواءٌ كان عمل القدر يتم بعون الأرواح القدسية التي تخدم العناية، أو كانت سلسلة القدر تنسجها روح العالم، أو كل الطبيعة أو حركة النجوم في السماء أو قوى الملائكة أو شتى قدرات أرواحٍ أخرى، أو بعض هذه، أو كلها، فثمة شيءٌ يقينيٌّ واحد، وهو أن الخطة البسيطة الثابتة للأحداث هي العناية، وأن القدر هو الشبكة الدائبة التغير، التصريف الزماني لكل الأحداث التي خَطَّطها الله في بساطته.

إذن، كلُّ شيءٍ يندرج تحت القدر هو أيضًا خاضعٌ للعناية التي يخضع لها القدر نفسه، غير أن هناك أشياء تندرج تحت العناية ولكنها تعلو على مسار القدر، تلك هي الأشياء التي تعلو على نظام التغير الذي يحكمه القدر، بفضل ثبات موقعها بالقرب من الذات العَلية، تخيل مجموعةً من الحلقات المتراكزة (المتحدة المركز) الدوَّارة، إنَّ أوغلها في الداخل هي أقربُها إلى بساطة المركز، وهي بمثابة مركزٍ للحلقات الأبعد لتدور حوله، وإن الحلقة الأبعد (عن المركز) تدور خلال فلكٍ أوسع، وكلما زاد بُعدها عن نقطة المركز غير المرئية زاد الفضاء الذي تمتد خلاله، وكل ما يُلحق نفسه بالحلقة الوسطى يكون أقرب إلى البساطة وأقل امتدادًا خارجيًّا، وبالطريقة نفسها فإن كل ما يبتعد عن الفكر

الأَوَّلِيِّ يزداد تقيُّده بقيود القدر، وكلما اقترب من مركز الأشياء ازداد انعتاقُه من القدر، أما ما يلتصق بالعقل الإلهي الثابت فإنه يكون متحررًا من الحركة وبذلك ينفلتُ من قيد القدر، إن العلاقةَ بين المسار الدائب التغير للقدر والبساطة الثابتة للعناية هي أشبه بالعلاقة بين الاستدلال والفهم، أو بين الصيرورة والكينونة، أو بين الزمان والأبدية، أو بين المحيط الدائر والمركز الثابت.

مَسار القَدَر يحرك السماء والنجوم، ويحكم العلاقة بين العناصر، ويحوِّلها من خلال التنويعات المتبادلة، ويجدِّد جميع الأشياء التي تُولد وتموت بما يشبه تعاقب الثمرة والبذرة، ويضبط أيضًا أفعال الناس ومصائرهم بسلسلة الأسباب التي لا فكاك منها، وحيث إن هذه الأسباب تَستمِد أصلها من العناية الثابتة فهي أيضًا ثابتةٌ لا تتغير؛ ذلك أن العالم يُدار على أفضل نحوٍ إذا ما قدَّمت البساطة الكامنة في العقل الإلهي نظامًا ثابتًا للأسباب لكي يحكُم بسُنةٍ لا مُبدِّل لها: كل شيءٍ خاضعٍ للتغير وحقيقٍ إذا تُرك لشأنه أن يتقلب ويَخْبِط خبط عشواء.

ولأنكم معشر البشر لَستُم في موقعٍ يُتيح لكم تأمُّل هذا النظام يبدو لكم كل شيءٍ مضطربًا في فوضى، ولكن الحق أن كل شيءٍ يأخذ موضعه الذي يضبطه ويتجه به صوب الخير، لا شيء يمكن أن يحدث بسبب الشر أو بسبب الأشرار أنفسهم، وهم كما أسهبنا في التِّبيان إنما يحيدون عن التماس الخير بالخطأ والحُمق، بينما النظام الذي يَصدُر عن الخير الأسمى في مركز العالم لا يمكن أن يحيد بأي شيءٍ منذ البداية.

لعلك تعترض بقولك إنه ليس ثمة ما هو أسوأ اضطرابًا من أن مصائر أخيار الناس وأشرارهم ما تفتأ تتقلب بين العسر واليسر، وسوف أسألك ما إذا كان للناس دائمًا ذلك العقل الصائب الذي يخوِّلهم عصمةً من الخطأ في حُكمِهم عمن هو صالحٌ ومن هو طالح، كلا، إن أحكام البشر لتتضارب في هذا الشأن بحيث إن من يحكم عليهم البعض بأنهم أهلٌ للمثوبة يراهم الآخرون أهلًا للعقوبة.

ولكن لِنَفْترض أن شخصًا ما لديه القدرة على التمييز بين الصالح والطالح، فهل بمكنته أن يعرف خفايا الشعور الباطن مثلما يعرف الطبيب درجة حرارة الجسم؟ حقًّا إن دهشتك أشبه بدهشة رجلٍ يعرف لماذا تُلائم بعض الأجسام السليمة الأطعمة الحلوة وتُلائم بعضها الآخر الأطعمة المُرة، أو لماذا ينتفع بعض المرضى بالعقاقير الخفيفة وينتفع الآخرون بالعقاقير الحادة والمرة، ولكن الطبيب لا يَدْهَش لهذه الأشياء لأنه يعرف سبل الصحة والمرض ومواصفاتهما، وماذا تكون صحة الروح غير الفضيلة؟

وماذا يكون مرضها غير الرذيلة؟ ومن يكون حافظ الخير وطارد الشر غير الله ... حارس الأرواح وشافيها؟ إن الله لينظر من علياء عنايته ويرى ما يلائم كل إنسانٍ ويُيَسِّره له.

من هنا إذن يأتي السبب الواضح للاندهاش من نظام القدر: إلهٌ حكيمٌ يفعل وبشرٌ جهولٌ يستغرب أفعالَه.

ولكي أُطلعك على شيءٍ من عمق الحكمة الإلهية بقدر ما يسمح الفهم البشري، وكيف أن ما يبدو لك فضلًا وعدلًا قد يبدو غير ذلك من منظور العناية ... منظور العليم البصير: ألم يُنبئنا زميلنا الفيلسوف لوكانوس Lucanus أن «القضية الرابحة راقت الآلهة ولكنَّ القضية الخاسرة راقت كاتو Cato»، مع أنه كان مثالًا للفضيلة؟ ومن ثم، كلما شهدت شيئًا يجري على غير ما تريد وتحتسب فاعلم أن الأحداث تجري مجراها الصحيح ولكن رأيك هو الزائغ والمُلتبس.

ولكن إذا كان هناك امرؤٌ يعيش حياةً صالحةً عند الله والناس معًا، غير أنه خائر الروح غير جلد، وقد يَتَنَكَّب طريق الصلاح إذا سارت ضد يسره ورخائه، هنالك قد يكون من حكمة القضاء أن يلطف به وألا يبتلي بالضر مَن لا يقوَى عليه.

وهناك مَن بلغ من كمال الفضيلة مبلغًا يجعله قدِّيسًا وشديد القرب من الله، حتى لَتَعز على العناية أن تناله بأي أذًى حتى في صحة الجسم، فيصح فيه قول من هو أفضل مني:[٢]

«إنما جُبِلت أجسام القديسين مِن أثير السماء.»

وكثيرًا ما يتصادف أن تقع السلطة العليا في يد الأخيار حتى يتسنى لهم أن يكبحوا تنامي الشر.

وهناك من يصيب مزيجًا من العسر واليسر وفقًا لصنف روحه.

وقد تشاء العناية أن تخز البعض كي لا يُبطرهم طول الرخاء.

وقد تبتلي البعض بالشدائد حتى تُقوِّي فيهم فضائل الروح بممارسة الصبر.

وإذ يخشى البعض من الألم وهم قادرون عليه، ويستهين به البعض وهم غير قادرين على احتماله، فقد يذيقهم القضاء شيئًا منه لكي يكتشفوا أنفسهم.

وقد يكون الموت لدى البعض ثمنًا للمجد والسؤدد عبر الأجيال.

---

[٢] المصدر غير معلوم.

وتكون الكبرياء في وجه العقاب مثالًا للآخرين على أن الشر لا يَقهرُ الفضيلة.

فهل هناك من شكٍ في حكمة التدبير الإلهي في كل هذه الأشياء وفي أنها تجري في صالح من تنزل بهم؟

وكذلك الحال مع الأشرار، فحقيقة أنهم أيضًا تنالُهم الضراء أحيانًا وينالون رغباتهم أحيانًا أخرى مَرَدُّها إلى نفس الأسباب، فإذا أصابهم الضُّرُّ فلا عجب فالكل يُسلِّم بأنهم يستحقونه، وعقابهم يردع الآخرين عن الجريمة من ناحيةً ويُقوِّم من ينزل بهم من ناحيةٍ أخرى، أما إذا سعدوا بتحقيق رغائبهم فتكون تلك حجةً للأخيار حول صنف الحكم الذي ينبغي أن يَحكُموا به على مثل هذه السعادة التي كثيرًا ما يرونها تلازم الأشرار.

وهناك شيءٌ آخر يبدو لي مُحكم التدبير: فقد يكون ثمة شخصٌ ذو طبعٍ جموحٍ واندفاعي بحيث يمكن أن يَدفعَه الفقر والعَوَز إلى ارتكاب الجرائم، مثل هذا المرض لدى هذا الشخص تداويه العناية بجرعةٍ من الثروة يجمعها ويَضِنُّ بها، وهو قد يرى ضميره ملوثًا بالإثم ويقارن بين استحقاقه وبين الثروة التي أصابها فيداخله خوفٌ من فقدان هذه الثروة التي يتمتع بامتلاكها، فيبدأ في تغيير أسلوبه ويحيد عن الشر خشية أن يخسر هناءه.

والبعضُ يُفضي به سوء استخدامه للثروة إلى تدمير نفسه دمارًا يستحقُّه، والبعض يخوِّله القدر حق معاقبة الآخرين لكي يكون سببًا لامتحان الأخيار وعقاب الأشرار، فمثلما لا يوجد اتفاقٌ بين الأخيار والأشرار، كذلك لا اتفاق بين الأشرار فيما بينهم، ولا مناص من ذلك ما دام الواحد منهم موزَّع الضمير بسبب آثامه، وكثيرًا ما يَنقلب على نفسه ويفعل أشياء يَرَى فيما بعد أنه ما كان ينبغي أن يفعلَها.

هكذا تمارس العناية تأثيرًا لافتًا: وهو أن الأشرار قد يحوِّلون بعض الأشرار أخيارًا! وذلك حين يُحسُّ هؤلاء بأنهم ظُلِموا على يد من هو أخبث منهم فيكرهون الظلم ويقررون أن يتوبوا عنه ويعودوا إلى الفضيلة.

إنه بقدرة الله، وقدرة الله وحدها، قد تكون الشرور خيرًا أيضًا، وذلك حين يُصرِّفها الله تصريفًا يحقق نتائج خيرة، ذلك أن هناك نظامًا صارمًا يشمل الكل، وكل ما يحيد عن النظام المحدَّد له يعودُ فيُردُّ إلى النظام، وإن في سياقٍ مختلف، بحيث لا يبقى مكانٌ للمصادفة في مملكة العناية.

ولكن كما جاء في الإلياذة لهوميروس: «من المتعَذِّر عليَّ أن أبسط كل هذه المسائل كما لو أنني إله»، ولا هو بمتاحٍ للإنسان أن يستوعب في عقله كلَّ طرائق الله ووسائله في تصريف الأمور، ويعبِّر عنها بالكلمات، وبحسبنا أن نرى أن الله، خالق كل شيءٍ، يدبِّر الأشياء جميعًا ويسوقها إلى الخير، ويدفع الخلق دفعًا على أن يتشبَّه به ويَعنو لسُنَّته، وبسلاسل الضرورة المقدرة ينفي الشرَّ من حدود مملكته، تظنون أن الشر يملأ الأرض، ولكن لو أمكنكم أن تنظروا بمنظار العناية الإلهية لما وجَدْتم له على الأرض أثرًا!

ولكني أرى أنك قد أُثقل عليك بعبء هذا السؤال، وأُرهقت من متابعة استدلالي المسهب، وشاقَتك حلاوة النغم، فإليك منه جرعةً تنعشُك وتُجدِّد قواك وتجعلك أقدر على مواصلة المسير.

إذا أردت أن ترى سننَ الله،[٣]
وتَفْقَهَها بذهنٍ صافٍ،
فارم ببصرك إلى أعلى السماء
حيث يَسري ميثاقُ الأشياء،
ويسودُ السلامُ القديمُ بين النجوم السيَّارة،
فالشمس التي يدفعها لهبها الباهر قدمًا
لا تعوق فلك القمر البارد،
ولا الدُّب الذي يتخذ مساره المندفع
في أعلى السماء ينزل في البحر الغربي
متبعًا النجوم الأخرى التي تغمر لهبها في أعماق المحيط،
وبقسمةٍ عادلةٍ من الزمن
يعلن نجم المساء دائمًا قدوم الغسق،
ويعود ثانيةً في الفجر كنجم الصباح
هو الحب المتبادَلُ إذن

[٣] استَشهد برتراند رسل بهذه القصيدة وأوردها كاملة في كتاب «تاريخ الفلسفة الغربية»، وقال إنها لا تختلف عن قصيدة بوب «في الإنسان». وعلى ذكر برتراند رسل نذكر أنه قال عن «عزاء الفلسفة»: «يحق لجيبون أن يدعوه سفرًا ذهبيًّا.»

يُبدئ الدورات الأبدية ويعيدها،
أما النزاع فمنبوذٌ من ممالك النجوم
هذا التوافق يحكم جميع العناصر بحسابٍ عادل،
فيعنو الرطب لضدِّه اليابس على التتالي،
ويتحِدُ البارِدُ بتفاهمٍ مع الحار،
والنار الخفاقةُ تندفع إلى أعلى،
أما الأجسام الأرضية الثقيلة فتهبط إلى أسفل
ولهذه الأسباب حين يحل الربيعُ الدافئ
ينشر موسم الإزهار عبيره،
وفي الصيف الحار تجف الغلال،
ثم يعود الخريف مثقلًا بالثمار،
والمطر الساقط يرطب أيام الشتاء
كل ما يتنسَّم على الأرض نسمة الحياة،
إنما يأتي به هذا المزيج ويغذوه،
ثم ينتزعه ويخفيه،
وفي طيات الموت يدُس في النهاية كل ما أنشأ
بينما يتربع الخالق في أعاليه،
الذي يحكم ويمسك بأعنة كل الأشياء
مليكها وسيدها، ومنبعها ومنشؤها
قانونها وقاضيها العدل
يحث حركةَ الأشياء بقَدَر،
ويردُّ الشارد ويُعيد الضال،
فإذا لم يَرُد الأشياء إلى جادتها،
ويعدها إلى دورتها،
فسوف تتقطَّع بها السبل،
وتَنْبتُّ عن مصدرها وتهلك.

* * *

هذه رابطة الحب الجامعة
الكل يعنو لقيود الخير،
فليس من سبيلٍ آخر لبقائها
ما لم تعقد عُقدة الحب،
وما لم تَعُد صاغرةً
لقيود الأسباب التي مَنَحَتها الوجود.[٤]

[٤] في هذه القصيدة عودة إلى التوكيد على السلام والمحبة (الذي سبق فيه القصيدة ٨ من الكتاب الثاني)، وقد رأى فيها بعض الشرَّاح صدى لكتابات الآباء المسيحيين، وسواء صح هذا التأويل أو كانت المحبة هنا مجرد صدى أمبدوقليسي، فقد كان لهذه القصيدة أثر عظيم في الأزمنة اللاحقة، وها هنا تجد بذور فكرة دانتي (كما في حديث بياتريس في نهاية «الفردوس ١»)، وتجد مصدر فلسفة الحب النبيلة عند تشوسر في «ترويلوس وكريسيدا».

الفصل السابع

كلُّ قدرٍ خير

ف: «أترى الآن ما يُفضِي إليه كلُّ ما قلناه؟»

ب: «ما هو؟»

ف: «كلُّ نصيبٍ هو بالضرورة خير.»

ب: «وكيف يكون ذلك؟»

ف: «أصغ، كلُّ حظٍّ سواء أكان يسرًا أم عسرًا إنما يتغيَّا أن يُكافئ الصالحين أو يَعِظَهم، وأن يعاقب الأشرار أو يُقوِّمهم، ومن الواضح إذن أن كلَّ ما يجري به القضاء هو عدلٌ ونفعٌ، وكل نصيبٍ هو خيرٌ على اليقين.»

ب: «الحق أن حجتَك صائبةٌ جدًّا، وإذا نظرت إلى العناية أو القدر بالطريقة التي ألقيتها على سمعي الآن فإن رأيك يكون قائمًا على أساسٍ وطيدٍ، ولكن دعينا، إذا تَفَضَّلت، ندرجها بين تلك الآراء التي أسمَيتها منذ قليل بالآراء التي «لا يمكن تصورها».»

ف: «لماذا؟»

ب: «لأنَّ من الأقوال الشائعة بين الناس، والمتواترة بكثرةٍ في الحقيقة، أن بعض الناس سيئ الحظ.»

ف: «أتريد إذن أن نقتربَ من حديث الناس اليومي لئلا نبدو كأننا ابتعدنا كثيرًا عن الخبرة البشرية؟»

ب: «نعم، مِن فضلك.»

ف: «حسن، ألا تعتبر أن الشيء النافع والمفيد هو خير؟»

ب: «بلى.»

ف: «والحظ الذي من شأنه أن يَعِظ أو يُقوِّم، ألا تعتبره مفيدًا؟»

ب: «بلى.»

ف: «وبالتالي خيرًا؟»

ب: «يتعيَّن ذلك.»

ف: «وهذا الحظ هو إما للذين يَمضون بثبات على طريق الفضيلة ويناضلون ضد مصاعبهم، وإما للذين تركوا الرذائل واتخذوا طريق الفضيلة؟»

ب: «إنه لكذلك.»

ف: «وماذا إذن عن الحظ السار الذي يُمنح للأخيار كمكافأة؟ أيَعُدُّه الناس سيئًا؟»

ب: «كلا، بل يرونه الأفضل بين الحظوظ.»

ف: «وماذا عن الصنف الأخير من الحظ، وهو العسيرُ والذي يكبح الأشرار بالعقاب الذي يستحقونه، هل يراه الناس خيرًا؟»

ب: «كلَّا، بل يرون أنه أتعس شيءٍ يمكن تصوره.»

ف: «احذر أن توقعنا التصورات الشائعة في شيءٍ «لا يمكن تصوره» حقًّا.»

ب: «ماذا تقصدين؟»

ف: «حسن، النتيجة المستفادة مما افترضناه هو أن حظ الأخيار سعيدٌ كله، سواءٌ منهم الراسخون في الخير أو المتقدمون على دَرْبه أو المبتدئون فيه، بينما حظ جميع المُخلَّفين في الشر هو حظٌّ سيئ تمامًا.»

ب: «هذا حق، وإن لم يجرؤ أحدٌ على الاعتراف به.»

ف: «لهذا السبب، ينبغي على الحكيم ألا يشكو كلما اشتبك مع الحظ، مثلما ينبغي على الشجاع ألا يسخط إذا حمي وطيس الحرب، ذلك أن الشدائد نفسها هي فرصةٌ لكلٍّ منهما: لواحدٍ كي ينال المجد، وللآخر كي يؤكد حكمتَه ويقَوِّيها، من هنا تستقي «الفضيلة» virtue اسمها؛ لأنها قويةٌ صلبةٌ بحيث لا تَقهرُها الشدائد.[1]

ولا أنت يا مَن تمضي قدمًا على درب الفضيلة قد بلغت ما بلغت لكي تُسلم نفسك للمباهج أو تُفسدها بالملذات، بل اصطَرِع بعنفٍ وضراوةٍ مع كل ضروب الحظ الجامح؛

[1] في التعبير الذي يستخدمه بوئثيوس جناس بين كلمتي virtus (فضيلة) وvires (قوة).

حتى لا تقهرك الضراء ولا تفسِدك السراء، اتخذ الطريق الوسط بصلابةٍ لا تهتز، فكلُّ ما يحيد عن الوسط يُزْرِي بالسعادة ولا يجني ثمرة جهده، إنَّ قَدَرَك بيديك ... بيدي صنف القدر الذي تَوَدُّ أن تُشكِّله لنفسك؛[٢] لأن كلَّ ما يبدو عسيرًا هو عظةٌ أو تقويمٌ أو عقاب.»

عشر سنواتٍ متصلة من الحرب
استغرق انتقامُ أجاممنون، بسقوط طروادة،
لفراش أخيه المنتهَك،
هو أجاممنون نفسه الذي اضطُرَّ لكي يُقلع بسفنه
إلى أن يشتري الريح المواتية بالدم،
فنضا عنه ثوب الأُبُّوة ولبس ثوبَ الكاهنِ المتحجر القلب
ووجأ عنق ابنته المسكينة.[٣]

* * *

كم بكى أوديسيوس بحرقة
لفَقْد رِفاقه،
الذين ازدردهم في جوفِهِ الرحب
بوليفيموس القابع في كهفه الواسع،
فما لبث أن سَمَل أوديسيوس عينه الوحيدة،
وتَرَكه يتضوَّر غضبًا،
ويدفع ثمن ابتهاجه، من دموع الفجيعة.[٤]

* * *

[٢] أي فهمك وتأويلك لقدرك.

[٣] وفقًا لإلياذة هوميروس نشبت حرب طروادة بسبب اختطاف باريس الأمير الطروادي لهيليني زوجة مينيلاوس شقيق أجاممنون، وقاد أجاممنون الحملة اليونانية لاستعادة هيليني، وقد اضطر إلى التضحية بابنته إفيجينيا للإلهة أرتيميس، التي أغضبها، حتى تواتيه الريح في رحلته البحرية إلى طروادة، وبعد عشر سنوات من الحصار استطاع اليونان اقتحام طروادة وحرقها والاستيلاء عليها (وفي بعض الروايات أن أرتيميس أنقذت إفيجينيا من القتل).

[٤] من مغامرات أوديسيوس في طريق عودته من طروادة إلى إيثاكا، وفق ما ورد في الأوديسية، لهوميروس وقوعه هو ورفاقه أسرى في كهف الكيكلوبس (المارد) بوليفيموس ذي العين الواحدة الدائرية، الذي جعل

اشتهر هرقلُ العظيم بأعماله الصعبة،
أدَّب القنطورات المتعجرفة في فيلوا،
وانتزع جلد الأسد في نيميا،[٥]
وأَقْصَدَت سهامُه الصائبة طيورَ ستيمفالوس،[٦]
وانتزع تفاحات هيسبيروس الذهبية[٧]
على مرأى من التنين،

منهم طعامًا يزدرده تباعًا كوجباتٍ له، فتفتق ذهن أوديسيوس عن حيلٍ يخَلِّص بها نفسه ومن بقي من رفاقه من كهف الكيكلوبس، فسقاه خمرًا جيدةً وسَمَل عينه الوحيدة بجذعٍ مبري متأجج بالنار، فجعل يصيح ويولول، ونجح أوديسيوس بعدها بحيلة أخرى في الهروب مع مَن تبقى من رفاقه من كهف بوليفيموس.

[٥] كانت مهمة هرقل الأولى كما حدَّدها الملك يوريسثيوس هي أن يأتي له بجلد أسدٍ رهيبٍ كان يُروِّع التلال حول مدينة نيميا، وعن الأعمال الاثنى عشر التي قام بها هرقل ومغزاها، راجع سينيكا، هرقل فوق جبل أويتا (ترجمة وتقديم معجم أسطوري أحمد عتمان سلسلة من المسرح العالمي الكويتية) «مارس ١٩٨١م» ولا سيما المقدمة من ص١–١٠٧.

[٦] هو سرب من الطيور آكلة لحوم البشر تجمَّعت على بحيرة بالقرب من مدينة ستيمفالوس، وكان مطلوبًا من هرقل طردها، وقد روَّعها هرقل بأن أحدث ضوضاء عجيبة بمصفقات من صنع هيفايستوس إله الحدادة؛ حتى تطير من الأشجار، ثم أهوى عليها بسهامه وهي تُولِّي هاربة.

[٧] طلب يوريسثيوس من هرقل أن يأتيه بتفاحات ذهبية تخص زيوس كبير الآلهة كانت زوجته هيرا قد أعطته إياها كهدية زواج، وهي مهمة مستحيلة؛ لأن هيرا لم تكن تَوَد أن ترى هرقل ينجح في مسعاه ولم تكن لتسمح له بالاستيلاء على شيءٍ من ممتلكاتها العزيزة، كانت هذه التفاحات محفوظة في حديقة في الطرف الشمالي للعالم يحرسها تنين ذو رءوس مائة يُسمَّى لادون، وتحرسها أيضًا الهسبريدات وهي حورياتٌ بنات أطلس العملاق الذي يحمل السماء والأرض على أكتافه، وفي رحلة هرقل للبحث عن الحديقة صادف أهوالًا، منها لقاؤه بأنتيوس ابن بوسيرون إله البحر، وقد استوقفه أنتيوس ليقاتله فقهره هرقل في منازلة مصارعة، وحين وصل هرقل إلى صخرة على جبل القوقاز التقى ببروميثيوس الذي عذبته الآلهة؛ لإفشائه سرَّ النار إلى البشر، بأن جعلته مُوثقًا ينهش نسرٌ وحشي كبده، فخلَّصه هرقل، وعلى سبيل العرفان بالجميل فقد أنبأه بروميثيوس بسر الحصول على التفاحات، وهي أن يلجأ إلى أطلس ليحضرها بنفسه، في مقابل أن يحمل هرقلُ حِملَه الذي كلَّ أطلس ومَلَّ من حَملِه، بذلك أمكن لهرقل الحصول على التفاحات بعد أن خدع أطلس وحمَّله الكون مرةً أخرى.

وأسر كيربيروس[٨] وقاده مُصفَّدًا في الأغلال،
وأسر أفراس ديوميديس،[٩]
وقدَّم إليها لحم سيدها لتأكلَه،
وأحرق الهيدرا[١٠] وأبطل سُمَّها،
وأصاب أخيلوؤس[١١] بجرحٍ مخزٍ،
فراح يوارِي وجهه خجلًا تحت ضفَّته،
وصرَعَ أنتيوس في رمال ليبيا،
وقتل كاكوس ليشفي صدر إيوأندروس[١٢]
تلك الأكتاف التي ستحمل السماء
لوَّثها الخنزير الإريمانثي[١٣] بمخاطه،
أما العمل الأخير فهو أن يحمل السموات
على عنقٍ قائمٍ لا ينحني.

* * *

[٨] طلب يوريستيوس من هرقل أن يأتيه بكيربيروس، الكلب الوحشي ذي الرءوس الثلاثة حارس بوابة العالم السفلي «هاديس»، وقد صارعه هرقل وأتى به حيًّا إلى الملك.

[٩] أرسل يوريستيوس هرقل ليأتيه بأحصنة ديوميديس، آكلة لحوم البشر، وديوميديس ملك قبيلة طراقيا تُدعَى بيستونيس، وقد أسرها هرقل وأخضع القبيلة، وأطعم الأحصنة لحم ديوميديس فذهبت ضراوتها.

[١٠] كانت مهمة هرقل الثانية هي أن يقتل الهيدرا — وهي وحش كان يروِّع القرى في ليرنا، له رءوس تسعة كلما قطع هرقل منها رأسًا نبت مكانه رأسان جديدان — ولم يتمكن من تحطيم الرءوس إلا باللهب وبمعرفة ابن أخيه يولاؤس.

[١١] كان أخيلوؤس نهرًا إلهًا، وكان بإمكانه أيضًا أن يتخذ شكل ثور، وقد تمكَّن هرقل من أن يُطيح به أرضًا ويكسر أحد قرنيه، ولكي يُخفي أخيلوؤس جرحَه المخزي فقد ذهب ووارى وجهه في ضفة النهر.

[١٢] في طريق عودته بعد أن أسر ثيران جيريون، المعروف بأنه أقوى رجلٍ حي، قابل هرقل الملك إيوأندروس، وبينما كان البطل يستريح سرق كاكوس الراعي ذو الرءوس الثلاثة بعضًا من أفضل الثيران وخبأها في كهفه، وقد دفع كاكوس حياته ثمنًا لجريمته.

[١٣] طلب الملك يوريستيوس من هرقل أن يأتيه بالخنزير الإريمانثي حيًّا، وقد كان خنزيرًا ضخمًا، تنضخ أنيابُه بالرغوة، يهاجم البشر والحيوانات في القرى ويدمر كل شيء في طريقه، وقد استطاع هرقل أن يأسره ويُقيِّده في شبكة ويحمله إلى الملك.

امضِ إذن بجسارة
إلى حيث يقودُك الطريقُ المجيد
للقدوة الرفيعة،
لماذا تثَّاقل وتَنْكُص على عَقِبيك
إذا كان اجتيازُ الأرض
يَهَبُك النجوم؟